المدن:

- عوامل تدهور المدن في اوائل العهد العثماني:

اصبح العراق مع مطلع القرن السادس عشر ساحة للصراع بين دولتين قويتين مختلفتين، هما: الدولة العثمانية والدولة الصفوية، وهو صراع شغل معظم هذا القرن. ولعل أهم ما نتج عن هذه الفوضى السياسية والعسكرية، والضعف الشديد في سلطة المراكز المدنية في البلاد، وقد ادى ذلك الى بروز دور القبيلة، ازاء انحسار دور المدينة الاداري والحضاري، اذ كانت القبيلة هي القوة الجماعية الوحيدة المؤهلة لأداء ذلك، باعتبار أن القبائل تلي بقوتها العسكرية قوة المدن مباشرة، فضلاً عن ان العصبية الاجتماعية في المجتمع القبلي أقوى مما هي عليه في المجتمعات الحضرية المتمدنة، ذلك أن العلاقات الاجتماعية والاقتصادية بين أعضاء المجتمع القبلي الواحد كانت- على الدوام- أبسط واكثر ترابطاً منها في مجتمع المدينة القائم على تعدد الفئات والطبقات .وعلى هذا فان ازدياد أهمية القبيلة على حساب المدينة، كان في حقيقته غلبة المجتمعات البسيطة على المجتمعات المعقدة المتعددة الطبقات والمسؤوليات، وكان تغير البنية الاجتماعية هذا قد أفسح المجال أمام القبائل للظهور على المسرح السياسي العراقي، لتلعب، دورها في مقدرات المدن العراقية ذاتها. وكان هذا –في الواقع- عودة إلى مرحلة متخلفة سابقة، حين كانت القبائل تشكل القوة الاجتماعية الرئيسية قبل قيام المدن ونموها.

مع هذا الوضع الاجتماعي، كان على العثمانيين أن يتعاملوا، وأن يقيموا سلطتهم السياسية في البلاد المحتلة، ولم يكن للحكام الجدد من الرصيد الحضاري ما يمكن أن يقدموه للحياة المدنية في العراق، حيث الحكم العثماني يقوم على قاعدة إبقاء الأوضاع بصفة عامة على ما كانت عليه قبل السيطرة العثمانية، دون تغيير حقيقي في جوهر العلاقات الاجتماعية والاقتصادية القائمة. وتكشف لنا أعمال السلاطين العثمانيين الأوائل في العراق عن طبيعة نظرتهم الى المدينة العراقية ، وهي نظرة ترتكز على تصور ان المدينة ليست الا حصناً او قلعة مهمتها الرئيسية حفظ الاراضي التابعة للسلطان ومركزاً لجمع الضرائب من تلك الاراضي وارسالها الى السلطة المركزية في اسطنبول . فقد بقي شيوخ قبائل وزعماء عشائريون ريفيون يسيطرون على المدن العراقية الواقعة في منطقة نفوذهم .

يمكن القول بأن خضوع المدينة العراقية للقبائل البدوية والريفية، كان- رغم بعض النواحي الايجابية القليلة يعد تدهوراً خطيراً لتلك المدينة ، وترديداً واضحاً في انشطتها

الحضرية وإذا ما أستثنينا الحكومات المؤقتة التي أقامها المنتفكيون في البصرة، والتي حظيت ببعض التأييد والاحترام من قبل تجار المدينة وسكانها، فأن أغلب المدن كانت تعاني من ضغط القبائل عليها، او فقدانها الأمن اللازم لاستمرار نشاطها الحضاري. وكان الاختلاف القائم بين قيم القبيلة ومثلها وما تمثله من روح عسكرية متنقلة لا تعرف الاستقرار، وبين قيم المدينة المرتكزة على نشاطاتها التجارية والإنتاجية المستقرة، يمثل هوة اجتماعية كبيرة يصعب تجاوزها الا على حساب المدينة ذاتها . وبقيت المدن في نظر القبائل تعد عالماً غريباً غير مألوف بالنسبة لها ، ولم تجد اغلب القوى القبلية انذاك حرجاً في استغلال الفرص السانحة التي تمكنها من الاستيلاء على المدن المجاورة. وكنتيجة لتدهور سيادة المدينة وضعفها، اهملت الأراضي الريفية الواقعة حولها، وسرى الاهمال إلى شبكة الأنهار والمصارف اللازمة للري والزراعة ، وكان هذا بدوره سبباً في تعاظم اخطار فيضانات الأنهار، وحدوث المجاعات التي انتهت بعزل المدن عن بعضها البعض وعن القرى .وَتدميرها، أو هجرة سكانها منها تدريجياً .

من أهم المدن العراقية التي اندثرت في أوائل العصر العثماني، مدينة واسط الشهيرة، ذات التراث الزاهر في القرون الوسطى، وذلك حين أدى اهمال شؤون الري إلى ابتعاد مجرى دجلة عن المدينة، وتحوله إلى مجراه الشرقي المنحدر الى بلدة القرنة فعم الخراب سائر المدينة. وما أن حل القرن السابع عشر حتى كانت هذه المدينة تقوم وحدها وسط البرية، وكان النهر الذي طالما أشتهر بقصبه الذي تتخذ منه الأقلام قد جف. ولم تمض إلا سنوات حتى هجرت المدينة برمتها .وللسبب نفسه، أضطر أغلب سكان مدينة النجف، على حافة الصحراء إلى الجلاء عن مدينتهم، حتى لم يبق من دور المدينة –في القرن السادس عشر- إلا عشر ما كانت عليه من قبل، ولم يبق من سكانها إلا الخطيب والأمام والموظفون وقليل غيرهم بينما تركها الآخرون. وكانت أسعار مياه الشرب باهظة الثمن، حيث يضطر سكان البلدة الى نقل تلك المياه من نهر الفرات عند بلدة الكوفة. ومثل ذلك، ما حدث لمدينة الرماحية القريبة من النجف وهي من المدن القديمة التي يرتقي تاريخ إنشائها إلى القرن الرابع عشر. فقد ادى إهمال العناية بمجرى الفرات،إلى تشعب نهر جديد منه في ١٦٨٨م عرف بنهر ذياب .وأخذ يخترق تلك الانحاء متوسعاً شيئاً فشيئاً ، ولما لم تكن ثمة سدود تمنع ذلك التوسع فقد ادى اهمال العناية بمجرى الفرات نفسه وابتعاده عن نهر الرماحية الذي كان يأخذ مياهه منه. فأجدبت تلك الأنحاء وأضطر سكان الرماحية إلى هجر مدينتهم ولجأوا إلى الجزر التي نشأت في المناطق الغارقة ومنذ ذلك الحين خمل ذكر الرماحية وقل شأنها. ومثلما أدى التحول المستمر

في مجاري الأنهار في جنوبي العراق إلى اندثار مئات المدن والقرى مما حفلت بذكر أوصافها كتب الجغرافيا العربية في القرون الوسطى فقد ادت عوامل أخرى إلى الاضطراب السياسي الذي شهدته المنطقة باعتبارها ساحة للصدام المباشر بين العثمانيين والصفويين وظهور عدد من القوى القبلية والأمارات العشائرية، وسقوط البلاد فريسة لتطاحن مرير بين تلك القوى غير الحضرية. ومن أبرز الأمثلة على ذلك، اندثار مدينة شهرزور ذات الماضي الزاهر في القرن السابع عشر، فقد نجم عن الحروب المستمرة بين العثمانيين والايرانيين وسيطرة أمارة أردلان القبلية تدهور المدينة ثم اندثارها، حتى لم يعد من الممكن تعيين موقعها الآن. ولم يتبق منها سوى أسمها الذي أخذ يطلق على الإقليم فحسب.

- نمو المدن العراقية في العهد العثماني:

يعد القرن السابع عشر الميلادي فترة استقرار نسبي وثبات في نظم الحكم لم تشهده البلاد من قبل، إلا أن الضعف الشديد الذي كانت تعانيه السلطة المركزية العثمانية في العراق، وغياب حكومات محلية قوية في مدنه الرئيسية، لم يغير من اوضاع المدينة العراقية كثيراً ، بل يمكن القول ان هذا القرن كان استمراراً للفترات السابقة فيما يتعلق بعمارة مدن العراق ونموها ، ما عدا العثمانيين أهتموا في هذا القرن بتحصين المدن والعناية بمرافقها لعسكرية من ابراج وخنادق تحسباً من غزو ايراني مرتقب . ولعبت عوامل عديدة اجتماعية واقتصادية وعسكرية دوراً في نمو المدن وتطورها في هذا العهد، فكان منها ما يتعلق بتشجيع الحكام، ومنها ما جاء نتيجة لحوافز خارج سيطرة السلطة الحاكمة، وربما اجتمع أكثر من سبب في نشوء المدينة العراقية ونموها وهو ما حدث بوجه خاص لمدينة بغداد والموصل والبصرة، ومدن اخرى اقل أهمية مثل السليمانية والعمادية وراوندوز في شمالي العراق، والحلة والنجف والديوانية على شاطئ الفرات الأوسط. ويمكن تحديد عوامل نمو المدن بما يلي:

أ. العامل الإداري:

إن ازدياد أهمية الحكومات المحلية ومحاولاتها الدائبة لفرض سيادتها الإدارية على الريف أظهرت لدى السكان ميولا واضحة للتجمع حول المراكز الحكومية، لما تتمتع به تلك المراكز من نفوذ متزايد على مجريات الأحداث حولها. فبالنسبة لبغداد مثلا، ترتب على تأسيس حسن باشا وابنه احمد باشا لنظام المماليك فيها القرن الثامن عشر الميلادي وقيام أول حكومة مركزية عراقية تأخذ على عاتقها توحيد العراق في العصر الحديث ازدياد أهمية

بغداد، باعتبارها مركزا إداريا رئيسا، ومقرا لأكبر سلطة سياسية في المنطقة، تستعيد أهميتها الإدارية السابقة. ومن ابرز الأمثلة على أهمية العوامل الإدارية في نشأة المدن في هذا العهد تأسيس مدينة السليمانية في منطقة سهل شهرزور شمال العراق، حين اقام البابانيون سرايا للإدارة والحكم عام ١٧٨٢م،سرعان ما نمت حوله المرافق الحضارية الأخرى من دور وأسواق وخانات ومدارس علمية، فتكونت بذلك مدينة السليمانية الحديثة، وانتقل إليها الناس تدريجيا حتى صارت من أهم المدن العراقية في شمالي البلاد. وتعتبر مدينة الديوانية على الفرات، من المدن التي نشأت –في هذه الفترة – بدافع إداري حكومي، حقيقة إنها قامت أول الأمر كدار ضيافة (ديوان) لرؤساء الخزاعل وليقيم بها وكيلهم لجباية الضرائب ، إلَّا ان حكومة المماليك في بغداد اتخذتها مركزاً ادارياً لها ، يقيم فيه نائب الوالي ويشرف على جمع الضرائب في منطقة واسعة تمتد من الحلة حتى البصرة، وليكون رقيبا قويا إزاء مشيخة الخزاعل القائمة هناك، ولقد تحول هذا المركز الإداري المحض ليكون مدينة وعاصمة لحكومة الحسكة.

ب. عامل التجمع القبلي:

مثلما كانت المدينة تمثل في حقيقة وجودها مظهر سيادة الدولة، فان القلاع الكثيرة المنتشرة في طول البلاد وعرضها، كانت تمثل -في واقع الامر- مظهر سيادة القبيلة على الريف، ذلك أن القبيلة بتكوينها مجتمعا مستقلا يمارس سلطات متنوعة عسكرية واقتصادية، كانت تحتاج إلى شيء من مظاهر تلك السلطات، فكان للقبيلة قلعة أو قلاع يتحصن فيها شيخها وأتباعه عند الممات ودار ضيافة يستقبل فيها ضيوفه وضيوف قبيلته وفيها تنعقد المخالفات وتدبر الأمور، وسجن يلقى فيه بخصومه أو أسراه من القبائل الأخرى. ومن هنا فقد ظهرت القلعة كضرورة ملازمة لوجود القبيلة ذاتها، فمن تلك القلاع المشهورة، يمكن أن نذكر قلعة (الملوم) على الفرات، بالقرب من منطقة المستنقعات (البطائح)، وكان شيخ الخزاعل قد بناها في القرن الثامن عشر لتكون عاصمة له، وقد وصفها نيبور عام ١٧٦٦م بانها قرية كبيرة ، وان بيتها ليست الا اكواخاً من الطين والقصب وفي حوالي عام ١٨١٦م اسست مدينة الحي الحالية بالقرب من اثارواسط القديمة على أيدي آل علي خان، احد زعمائها، وأهل النفوذ فيها، وفي عام ١٨٤٨م شيد الشيخ مجيد الخليفة قلعته التي عرفت فيما بعد ببلدة سيعيدة. وتعد مدينة الكوت نموذجا للقلاع القبلية، فقد أسسها بنو لام في النصف الثاني من القرن الثامن عشر لتكون عاصمة لحكمهم، وكان موقعها على شاطئ دجلة حصينا إلى درجة كافية

للسيطرة على الطرق النهرية في دجلة. وكذلك تأسيس قرية السماوة على الفرات حيث كان شيوخ الخزاعل يجبون فيها الضرائب على السفن المارة، وكانت بيوت هذه البلدة في النصف الثاني من القرن الثامن عشر مشيدة بالطين المجفف في الشمس وذات منظر مزري للغاية ، وهي محاطة بسور من الطين ، اما مدينة العمارة ، فكانت قرية تسكنها الاعراب ، وفيها قلعة ومثلها بلدة البغلية وتعرف اليوم بالنعمانية التي نشأت حول قلعة الاجر شيدها شفلح شيخ قبيلة زبيد .

ج. العامل التجاري:

إن استقرار الحياة الحضرية في المدينة العراقية منذ مطلع القرن الثامن عشر وتعاظم أهمية انشطتها الاقتصادية والاجتماعية، قد زاد من حدة التباين والاختلاف بين الانتاج الريفي البسيط المرتكز على الزراعة، وانتاج المدينة القائم على الصناعة والتجارة، وكلما ازداد هذا التباين، ظهرت الحاجة إلى اسواق تباع فيها منتجات الريف إلى حد سواء، وتتوفر فيها ما تحتاجه القبائل الرعوية والمزارعة، وما يحتاجه التجار والصناع في المدينة ذاتها. وقد ساعدت هذه الحاجة الاقتصادية الناشئة على تشييد مخازن الحبوب والاصواف، والمنشآت الدينية كالمساجد، فأدى ذلك إلى ظهور بعض المدن داخل المناطق الزراعية وعلى الحدود بينها وبين البادية، وشجع استقرار بعض القبائل التدريجي على نمو هذه الاسواق وازدهار الحركة التجارية فيها، ومن الامثلة على المدن التي نشأت بهذه الطريقة، مدينة (سوق الشيوخ) التي مازال اسمها يدل على الوظيفة التي كانت اساس وجودها، وقد عرفت هذه المدينة أول الامر بسوق النواشي، حيث كان افراد قبيلة النواشي وبعض القبائل الرعوية الأخرى يحصلون على ما يحتاجون من الطعام والبضائع من هذه السوق قبل رحيلهم إلى البادية. ويبدو أن هذه السوق كانت موسمية، فقد خلت كتابات الرحالة من أي ذكر لها وعندما استقر ال سعدون، وهم شيوخ المنتفك في المنطقة، واخذوا يترددون عليها اشتهرت هذه السوق باسم سوق الشيوخ نسبة اليهم. وقد اتخذها هؤلاء على عهد الشيخ ثويني في اواخر القرن الثامن عشر مركزا ثابتا لهم، ومخزنا لذخيرتهم ومكانا لتجمعهم. وبالإضافة إلى نمو الاسواق باعتبارها مراكز تبادل تجاري بين الريف والمدينة فان حركة التجارة هذه قد ادت ايضاً الى احياء الطرق التجارية القديمة وتأمينها ضد اللصوص المعتدين، وتوفير الخانات

اللازمة لنزول التجار، وخزن بضائعهم، وكانت حركة القوافل الدائبة تقتضي توفير اعداد من الادلاء والحراس والدواب لعدد كبير من التجار والمسافرين، كما تتطلب توفير وسائل الراحة من ماء وطعام، فكان طبيعيا أن تنشأ بعض القرى والمدن حول عدد من خانات الطرق، في اماكن مناسبة لتستطيع تقديم مثل هذه الخدمات الضرورية. هذا وان بعض المدن قد شهدت في العهد العثماني تطورا ونموا منها مدينة اربيل، فقد احتلت المدينة موقعا جغرافيا مهما في القسم الشمالي من العراق، مما جعلها محطة رئيسة على طرق المواصلات، ففيها تمر اقصر الطرق التي تربط المدن مع بعضها البعض. وقد ارتبطت اربيل مع مدن العراق بعدد من الطرق البرية الرئيسة المهمة، والتي كانت تتفرع منها طرق فرعية اقل اهمية. ومن المدن التي شهدت نموا في العصر العثماني الاخير نظرا لموقعها التجاري مدينة الكوت، فقد ظهرت هذه المدينة في منتصف القرن الثامن عشر، لتكون ميناء نهريا، لوقوعها على نهر دجلة عند تفرع نهر الغراف، فصارت مرفأ لاستراحة الملاحين، وسوق للتزود بالطعام، ومكان لتبديل السفن. وقد استطاعت تلك المدينة الناشئة من تثبيت وجودها سياسيا واقتصاديا واجتماعيا، مما حدا بالحكومة العثمانية الى ان تجعلها قضاء تابع للواء بدرة وجصان عام ١٨٩٥ وحتى الحرب العلمية الاولى عام ١٩١٤ .

- الخانات:

رافق المدن تزايد الخدمات المرتبطة بها، فانتشرت الخانات والمحطات على مختلف الطرق، ولاسيما في الاماكن التي تتباعد فيها المدن والقرى، ويصف الرحالة فيدريجي خان ضخم للتجار في بغداد فيه غرف لمبيت التجار، اذ يعرض فيه القسم الاكبر من اولئك التجار الاجانب ب ضائعهم لغرض بيعها. ويتحدث الرحالة تخيرا عن كثرة الخانات في بغداد التي يقيم فيها التجار، وهي كثيرة الارتياد وتغلق كل الشوارع والخانات في كل ليلة بسلاسل حديد غليظة ، وكانت على طريق النجف وهو طريق الحجاج ايضاً مجموعة متصلة من الخانات الكبيرة، مثل خان الكهيا في الجنوب من بغداد، وربما كان في بغداد اكثر من ٣٤خانا. وخان ازاد، الذي انشئ ليتسع لنحو خمسمائة شخص، وقد احاطت بالخان قرية صغيرة سكانها الاعراب من اهل الناحية، وما تزال هذه القرية عامرة. ومن تلك الخانات المهمة ايضاً خان الاسكندرية المشيد حدود عام ١٨٠٠م وهو يتسع لالف شخص مرة واحدة ،وتتوفر فيه كل وسائل الراحة في ذلك العهد ، اما خان المحمودية، فهو يماثل خان الاسكندرية من حيث الفخامة والاتساع ، ومثله خان المحاويل، وفي اوائل القرن التاسع عشر كانت هذه الخانات قد تحولت جميعها

إلى قرى تجارية مهمة يسكنها العرب، ويديرون فيها امورهم دون تدخل يذكر من جانب الحكومة المركزية. وعلى طريق بغداد – كرمنشاه التجاري، شيدت مجموعة من الخانات والمحطات، ومن أهمها خان بني سعد الذي انشأه والي بغداد عمر باشا عام ١٦٨٨م ليتوسط المسافة بين مدينتي بغداد وبعقوبة، وهو شبيه بالخانات السابقة، وقد احاطت به، فيما بعد، بلدة صغيرة يعمل أهلها على توفير الراحة للمسافرين. وقد اشتهرت مدينة اربيل في العهد العثماني بخاناتها، فقد صمم كل جزء من الخان هناك لكي يؤدي وظيفة معينة لها علاقة بتسهيل مهمة التجارة ومن يقوم بها، اذ تمارس عملية الخزن وتبادل البضائع وايواء التجار والمسافرين وحيواناتهم وكل ما هو شأنه ان يخدم هذه الاغراض، ويمكن ان نميز نوعين من الخانات في اربيل هي:

١.الخانات الواقعة في مركز المدينة ضمن منطقة السوق.

٢.الخانات الواقعة في اطراف المدينة.

- ابرز المدن العراقية في العهد العثماني:

امتازت المدن العراقية في العصر العثماني بعدة ميزات واضحة اقتضتها طبيعة الظروف لعسكرية والاقتصادية والاجتماعية ، كما اقتضتها ايضاً النظرة العثمانية لتخطيط المدن المرتكزة اساسا على الجانب العسكري الدفاعي فيها، ولقد انعكست هذه المؤثرات على تخطيط المدينة العراقية فشملت بذلك اهم مرافقها الرئيسية، كالقلاع والاسوار وسراي الحكم (مقر الحكم) والاسواق والدور والميادين العامة علما ان المدن العراقية كانت شوارعها ضيقة كذلك اسواقها ، وكانت الاسواق عادة قريبة من منطقة السراي. وتتفرع من السوق عادة مجموعة من الاسواق المتخصصة بنمط معين من التجارة والتي تؤلف بمجموعها حيا تجاريا كبيرا، فكل مدينة لها اسواق عديدة يختص كل منها بتجارة معينة من البضائع، والتي غالبا ما يسمى السوق باسم البضاعة التي تتاجر فيه مثل سوق العطارين، سوق البزازين...الاخ. لم تكن اوضاع المدن في العراق جيدة للأسباب الانفة الذكر، ومن خلال ما وصلنا من معلومات عن المدن العراقية يتضح ذلك بشكل جلي، ومنها مدينة بغداد.

لقد تحولت بغداد بعد الغزو المغولي عام ١٢٥٨من عاصمة دولة عظيمة الى مدينة اقليمية، ثم تولت عليها الغزوات والمعارك سواء أكان ذلك في العهد الجلائري والتركماني ام الحكمين الصفوي والعثماني، حيث كانت تتناوب بغداد خلالها الايدي المتنازعة وتتحكم فيها

القوى الطامعة، فضلا عما اصابها في هذه العصور من كوارث واوبئة وحرائق وفيضانات، غير ان بغداد رغم ذلك حافظت على سيادتها وبقائها كعاصمة فعلية للعراق.

لقد كانت مدينة بغداد مربعة الشكل، مشيدة من صخور بيضاء واخرى حمراء، وان اقدم وصف لها في العهد العثماني يعود الى الرحالة الهولندي ليونهارت راوولف الذي زار المدينة عام ١٥٧٣،اذ يذكر انها تقسم الى قسمين، وكانت شوارعها ضيقة، واكثر منازلها واهنة البناء، والكثير من جوامعها مخربة حتى تحول لونها الى السواد. ولم يلفت انتباهه سوى مقر الباشا والي بغداد، وسوقها، اما حماماتها فهي رديئة وسوداء ومعتمة حتى في النهار، وجانب المدينة الايمن مكشوف والدخول والخروج منها سهل جدا، حتى انها اشبه بقرية كبيرة اكثر منها مدينة، اما الجانب الكائن على الجانب الايسر من دجلة فقد كان محصنا بالأسوار والابراج العالية والخنادق المحيطة بالسور. ويصف الرحالة فيدريجي مدينة بغداد في القرن السادس عشر بانها مدينة ليست عظيمة، غير انها مكتظة بالسكان، وكثيرا ما يأوي اليها الغرباء من ايران، أو الدولة العثمانية، أو شبه الجزيرة العربية. ومنها تنطلق القوافل الى مختلف البلدان، اذ تتوفر في بغداد المؤن.

اما الرحالة البرتغالي تخيرا الذي زار بغداد عام ١٦٠٤ فقد رأى انها اصغر حجما من البصرة، واقل تأثيرا، وهي خالية من الابنية الحجرية الفخمة، ولكن تخيرا لاحظ كثرة المقاهي الممتدة ع لى شاطئ دجلة، والتي يلتقي الناس فيها لشرب القهوة والتحدث، ووصف المدينة بانها تتمتع بجو هادئ ونسيم عليل. وكان الوالي العثمان يقيم في القلعة وهي كبيرة ومستطيلة الشكل، ومحاطة بخندق يبلغ عمقه ٨اذرع وعرضه ١٢ذراع، وجدران هذه القلعة من الاجر وفي الجدار بعض الفتحات التي تطل منها قطع المدفعية.

ولم تكن بغداد بأحسن حال حينما زارها تافرنييه عام ١٦٥٢،اذ اشار الى ان ابواب المدينة تفتح عند السادسة صباحا، وان مساحة المدينة تبلغ ١٥٠٠خطوة طولا، و٨٠٠ خطوة عرضا، ومحيطها ثلاثة اميال، وللمدينة عدة ابواب هي:

١.باب الامام الاعظم: ويقع في الجبهة الشمالية وهو باب محكم الصنع يمتد على خندقه جسر قوي.

٢.باب الظلام: ويقع في الجنوب الغربي من بغداد، وهو باب حصين محكم التركيب من طبقات حديدية.

٣.الباب الابيض: ويقع في الجبهة الشرقية في بغداد وينفتح الى جهة ديالى.

٤.باب الطلسم: باب صغير يقع ما بين باب الظلام والباب الابيض، ويعرف باسم الباب الوسطاني لتوسطه البابين المذكورين.

٥.باب الجسر: يقع في الجهة الغربية من بغداد على شاطئ نهر دجلة.

وللمدينة خمسة جوامع، اثنان مبنيان بطريقة بديعة، وفيها عشرة خانات بناءها رديء، عدا اثنين منها يستعمله المسافرون للراحة، وبشكل عام كانت المدينة سيئة البناء، لا جمال فيها عدا اسواقها. وبعض تلك الابنية جديرة بالاعتبار، اولها السراي وهو مركز رجال الحكم، اما القلعة فتنتصب في الجهة الغربية، وفيها عدد كبير من الجنود لحمايتها. وينظر الاهالي اليها نظرة خوف وتعظيم، وفيها مدفعية جميلة. واشار فنشنسو ان الماء يباع في بغداد، ويجلبونه من الشط في قراب كبيرة من الجلد، وعلى ظهور الثيران والجياد، رغم تلوث المياه بالقار. واكثر ما اثار اعجاب هذا الرحالة هو الاراضي الواقعة على ضفاف دجلة والفرات التي كانت خصبة وكثيرة العطاء. والخيرات في بغداد وفيرة جدا، فالقمح كثير، وكذلك اللحوم ومختلف انواع الفاكهة. وكانت الطرق مليئة بمختلف انواع الحبوب وهي تباع بأسعار بخسة. وكانت الاسواق التجارية جميلة وواسعة، ومغطاة بسقوف. ومر بها الرحالة ثفينو عام ١٦٦٥،اذ ذكر انها اصبحت قليلة السكان بالنسبة الى سعتها، تتخللها مساحات واسعة عديدة تخلو من السكان، وفيها عدا السوق فان ما تبقى من المدينة لا يعدو ان يكون شبيها بالصحراء.

خلال القرن الثامن عشر كانت بغداد ما تزال في اوضاع سيئة، فالرحالة الدنماركي كارستن نيبور يذكر ان القسم الاعظم من داخل المدينة مهدم وغير مسكون، اما القسم المأهول بالسكان فهو الذي يقع على نهر دجلة والقريب من سراي الباشا، وفيها شوارع كثيرة تغلق كل مساء، ومعظم البيوت مبنية بالطابوق، وهي عالية نوعا ما، وليس فيها نوافذ تطل على الشوارع، وفي وسطها ساحة صغيرة مربعة الشكل تطل عليها جميع غرف المنزل، وفي كل بيت يوجد سرداب يقضي فيه البغداديون طيلة النهار في الصيف لاتقاء الحر. ويشير نيبور كذلك الى كثرة التكايا الصوفية في بغداد ومنها القادرية والرفاعية، فضلا عن وجود اكثر من عشرين مسجدا تعلوها المنائر، وفيها ٢٢ خانا، سبعة منها يسكنها تجار كبار، وهناك عدة حمامات، ومستشفى ذو غرف قذرة مظلمة يحجر فيها جميع المجذومين والمصابين بالأمراض المعدية.

ويبدو ان بغداد في القرن التاسع عشر لم تختلف كثيرا عن القرون السابقة، الا انها شهدت توسعا نوعا ما، فالرحالة الهندي مرزا ابي طالب خان زار بغداد عام ١٨٠٣وقال بانها

مقسمة الى قسمان بغداد الحديثة، وبغداد القديمة، والمدينة الاولى من الجهة الشرقية وفيها يقيم الباشا وكبار الموظفين، والثانية من الجهة الغربية من النهر وفيها منازل جميلة جدا، ويبلغ محيط المدينتين ١٨ميال، الا ان مرافق بغداد لا تتناسب مع شهرتها، فعقودها قذرة وموحلة، والاقامة فيها مكروهة في الشتاء، واسواقها مظلمة، الا انه ميز دور اعيان المدينة المبنية بالأجر، واشار ايضا الى كثرة المقاهي وهي مظلمة وقذرة . اما الرحالة البريطاني بكنغهام الذي زار بغداد عام ١٨١٦،فقد قدم لنا صورة جيدة عن بغداد، فالشوارع ضيقة وغير مبلطة، ويتألف جانباها عادة من جدارين خاليين من المشاغل، يندر فيها وجود النوافذ، في حين تكون ابواب البيوت صغيرة وضيقة، والشوارع ملتوية واكثرها تعرجا، وكانت بناية السراي عصرية نوعا ما، ويعتقد ان المساجد في بغداد اكثر من مائة مسجد، وهناك ايضا اكثر من ثلاثين خانا، واشهرها خان الاورطمة الذي يمتاز بأروقته الكبيرة والصغيرة. ويوجد فيها حوالي خمسين حماما، وكانت احسنها تلك المشيدة بالأجر وكانت ارضيته بسيطة. وكانت القنصلية البريطانية تعد من اوسع المنازل في المدينة وافضلها واكثرها تأمينا للراحة، وبعكس القنصلية الفرنسية التي كانت تقع في دار ضيقة وغير جيدة . وفي عام ١٨٥٣زار الرحالة البريطاني جيمس فيلكس جونز بغداد وقام بإجراء احصاء لعدد المحلات التي تتكون منها المدينة، وما تحويه هذه المحلات من جوامع واسواق وخانات ومقاه وحمامات، وبلغ عدد محلات الجانب الشرقي من بغداد ٤٠محلة، اما الجانب الغربي فاشتمل على خمس محلات فقط. ومن ذلك نلاحظ ان التمركز الكثيف للسكان كان في الجانب الشرقي والذي يعد مركز المدينة ومقر الولاية وتفضيل الناس للسكن فيه على الجانب الغربي لذلك السبب. وزار بغداد في عام ١٨٦٦ الرحالة الهولندي انهولت الذي اسهب في وصف المدينة الذي اشار الى ان الجانب الايسر تقوم عليه الاحياء المأهولة، اما الجانب الايمن فيمكن اعتباره ضاحية يسكنها ابناء العشائر. وتتألف البيوت من طابقين، والدور التي على شاطئ النهر تطل بغرف عالية ذات نوافذ جميلة واسعة مزينة بالزجاج الملون، وعد هذا الرحالة ان افضل الابنية في بغداد هو جامع الامام الاعظم، كما تحدث عن شارع الانكليز الذي يحوي دور الجالية البريطانية وينتهي بدار القنصلية البريطانية العامة. وزارت بغداد عام ١٨٨١ مدام ديو لا فوا وهي اديبة ومؤرخة فرنسية، واشارت الى ان في بغداد مدرسة كبيرة انشأتها هيئة فرنسية، وقدمت لنا معلومات عن التراموای الذي انشاه مدحت باشا والي بغداد السابق، وتحدثت عن خان الاورطمة وبأنه مركزا تجاري مهما.

لم تكن المدن العراقية بأفضل حال من بغداد، اذ ان الموصل في أوائل العصر العثماني كانت خرائب خالية من السكان. وقد وصف الاب فنشنسو الذي زار المدينة عام ١٦٥٦بان المدينة في القرن السابع عشر كانت اقل بكثير مما كانت عليه، فبيوتها بسيطة مشيدة بالطين، وهي اشبه ما تكون بيوت رعاة من ان تكون مساكن اناس متحضرين، وليس فيها ما يلفت النظر سوى قلعتها حيث يوجد عدد كبير من العسكر الانكشاري. ويحيط القلعة سور فيه مراكز للدفاع ضد الهجمات، وليس هناك ما يثير الاعجاب في المدينة. اما مواد البناء فهي الجص، والحجر الرخو. وهذا النوع من البناء لا يقاوم عوادي الزمن، فالأمطار الغزيرة تهدده كل حين، ولهذا السبب كان اقسام من القلعة مائلة الى السقوط، وبعضها متهدمة، وليس هناك من يفكر بترميمها. وقد لاحظ هذا الرحالة كثرة المدافع على السور، ومن عادة الاتراك انهم يكثرون من عدد المدافع فوق الاسوار، ولكن هذه المدافع كانت مطمورة الى نصفها في الارض، ولم تكن مجهزة بعربات، بل كانت مهملة كليا . وتقع القلعة في طرف المدينة الايسر، ويحيطها خندق تجري فيه مياه النهر، والقلعة مهملة، حيث يسكن فيها الوالي. ومدينة الموصل صغيرة، ضيقة المسالك، فقيرة المنازل، لكنها من جهة اخرى تتمتع بخيرات وافرة نظرا لخصوبة ارضها. ويسكن العرب على ضفاف النهر، وتكثر لديهم اللحوم والقمح ومختلف انواع الحبوب، فضلا عن الفاكهة والدجاج، وكانت الاسعار في اسواق المدينة بخسة الى درجة اثارت دهشة هذا الرحالة. وفي المدينة انواع عديدة من الخيول الايرانية، والتركية، والخيول العربية الاصيلة.

ويصف كل من الرحالة فيدريجي وجون نيوبري ورالف فيتش مدينة البصرة في القرن السادس عشر بانها مركز تجاري عظيم، لاسيما بالتوابل والعقاقير التي تجب اليها من هرمز، وتتوافر فيها الذرة والرز والتمور، التي تنقل اليها من المناطق المحيطة بها. اما جون ايلدرد فيشير الى ان مدينة البصرة يبلغ محيطها ميلا ونصف الميل، وكانت البيوت والقلاع والاسوار مبنية من الاجر المجفف بالشمس. ويبدو ان مدينة البصرة في القرن السابع عشر لم تختلف كثيرافي اوضاعها عن القرن السابق، فالرحالة البرتغالي بيدرو تخيرا الذي زار العراق في اوائل هذا القرناشار الى مدينة البصرة انها تقع على ارض منبسطة، وربما كان فيها عشرة الاف بيت داخل الحصن وخارجه، معظمها فسيحة واسعة، لكن بناءها رديء، فهي مبنية بالأجر المجفف بالشمس الذي لا يصمد اكثر من ثلاث سنوات الا ما ندر. وبيوت الفقراء في العموم من الحصران وحزم القصب الذي يكثر في الانهار. وكانت الاسوار والمتاريس هي الاخرى مبنية

من الطين، وكلها مهدمة تقريبا. ويحيط بالمدينة خندق عميق وعريض يغذيه رافد. وخلف الاسوار مراكز الحركة التجارية، ومعظم الحرف اليدوية ايضا، فضلا عن
المقرات الرئيسة ومراكز القيادة ومعظم الحامية. وهناك الباشا وهو القائد الاعلى في حالتي السلم والحرب، ودار مكوس تدر عوائد كبيرة تدفع منها نفقات الحامية وغيرها من التكاليف. ولا توجد في مدينة البصرة مباني جديرة بالذكر باستثناء بعض الحمامات العامة وهي نظيفة جدا ومريحة.

ويشير تايلر انه لا وجود لفن البناء في مدينة البصرة، فبيوتها منخفضة وهي مشيدة بالمدر الابيض الذي لم يفخر بالنار، ولكنه مصنوع من طين فاخر ونظيف للغاية، بعد ان يخلط جيدا بالتبن وروث الخيل. وتخلط هذه المواد مع الطين وتعجن جيدا، ثم تقسم الى قطع حسب الاحجام المطلوبة وتعرض من ثم للشمس لتجف وتتماسك. وان سكان المدينة مضطرون الى اتباع هذه الطريقة لافتقارهم الى الاخشاب في تلك الانحاء. والخشب الوحيد المتوفر لديهم هو خشب النخيل لكنه رخو ضعيف فلا فائدة ترجى منه. وزار الرحالة الهولندي راوولف قلعة اربيل عام ١٥٧٣ يصفها بانها كانت مدينة كبيرة فيها ابنية متواضعة واسوار هزيلة. ويبدو ان السبب في ذلك يعود الى امرين مهمين هما الاضطراب السياسي الذي شهدته المدينة منذ الغزو المغولي للعراق، ثم الصراع الصفوي-العثماني فيما بعد للسيطرة على العراق، حيث كانت اربيل منطقة تجاذب بين الدولتين للسيطرة عليها، الامر الذي ادى الى تدهور قلعة المدينة وفقدانها مكانتها وخصائصها العمرانية. ويبدو ان تلك القلعة لم تشهد تطورا كبيرا خلال القرون اللاحقة، ويتضح ذلك من شهادتين جاءتنا من القرن الثامن عشر، فالرحالة الدنماركي كارستن نيبور الذي زار العراق عام ١٧٦٦ يصف اربيل بانها لم يبق منها شيء عدا القلعة، ولكنها لم تكن مسورة، واقيمت عليها البيوت ولاسيما حول حافة التل بصورة متماسكة، فلا يستطيع احد ان ينفذ خلالها الا من خلال باب المدينة. ويقول الرحالة اوليفييه ان قلعة اربيل مبنية على تل مسطح ويحيط بها سور قديم. وكانت اسواق مدينة اربيل واسعة وجميلة ومكتظة بالتجار، وان معظمها مغطاة بالسقوف ومزينة بطريقة جميلة. ومخازنها مبنية من الطابوق وهي ملآى بالبضائع.

لم يكن في قلعة اربيل من الاثار الشاخصة غير بقايا جامع كبير يقع خارجها وسط الحقول، ومنارة الجامع مبنية من الجص والاجر، وتتميز بعمارتها الاسلامية حيث ان لها مدخلين متقابلين يمكن من خلالهما الصعود الى قمتها. وربما كان حجم مدينة اربيل في القرن الثامن

عشر هو الاكبر بعد الموصل، وهي تضاهي بمساحتها مدينة بغداد. وكان الجزء الاعظم من المدينة ينتشر حول القلعة. وكان ارتفاع القلعة نحو ١٥٠قدم، وقطرها ٤٠٠ ياردة. وجدرانها الخارجية تحتوي على نوافذ مبنية بطريقة غير منظمة، وما عداها هناك شرفات المنازل التي شيدها اغنياء المدينة. وللقلعة بابان كبيران، احدهما واسع يقع على الجهة الشمالية ويمر من تحت السراي، والاخر صغير يقع في الجهة الشرقية. وشوارع المدينة وعرة حتى ان العربات لا يمكن ان تسير فيها. وعد العثمانيون اربيل وقلعتها من المراكز العسكرية المهمة في المنطقة، لذا كان فيها حامية عسكرية عثمانية.

ومن المدن الاخرى التي وصلتنا عنها معلومات وان كانت قليلة مدينة تكريت التي يقول الايطالي فنشنسو انها كانت في الماضي مدينة كبيرة واسعة الاطراف، لكنها كانت في منتصف القرن السابع عشر قرية عادية، وفيها قلعة كبيرة واقعة على تل مسيطر على النهر، لها اربع ابراج. كما وردتنا معلومات جيدة عن مدينة الكوفة فقد ذكرها الرحالة الفرنسي اوليفييه، واشار الرحالة الانكليزي بورتر عام ١٨١٦الى الحالة المزرية للمدينة، فقد كانت صغيرة المساحة وشوارعها واسواقها ضيقة، اما بيوتها فقديمة وغير منتظمة البناء. كما اشار اليها الرحالة الايطالي سبيستياني وعدها مدينة غير جميلة ومهملة، وان اشاد الرحالة الدنماركي كارستين نيبور بمزارعها الجميلة. كما تحدث المنشي البغدادي عن الكوفة واشار الى انها بلدة كبيرة ليس فيها من البنايات سوى مسجدها. وكانت بشكل عام خلال القرن التاسع عشر بلدة كبيرة واسواقها غير منتظمة وبيوتها حسنة تحيط بها حدائق وان ظلت بصورة عامة مهملة وخربة. ووصف بيدرو تخيرا مدينة كربلاء في اوائل القرن السابع عشر بانها مدينة كبيرة مفتوحة تضم اكثر من ٤٠٠٠منزل، كثير منها جيدة العمارة ولكن بناءها بائس، وسكانها من المواطنين العرب ومن الاتراك الذين تم ارسالهم للسيطرة على المنطقة. وفي المدينة جامع تعلوه مأذنة مكرس للحسين(عليه السلام).وفي طرف المدينة هناك مستودعان كبيران مربعان، يستخدمان اماكن للراحة والضيافة. ومن المدن التي وصلتنا معلومات عنها مدينة الفلوجة ١٥٨٩، وكانت قرية صغيرة تضم بضع مئات من البيوت وهي مركز مخصص لتفريغ البضائع التي تأتي عبر الفرات.

- **التطورات المعمارية في المدن**:

شيد الولاة العثمانيون في العراق العديد من المساجد والمباني العامة، فقد انشأ الوالي اسكندر باشا جامعا في بغداد عام ١٥٦٦،كما بنى الوالي مراد باشا جامعا اخر سماه باسمه واكمل بناءه عام ١٥٧٠ويقع هذا الجامع في محلة الميدان. وفي عام ١٥٨٣ عمر الوالي علي الوزندازه ضريح ا لامام الحسين(عليه السلام) وجامعه ، كما اهتم الوالي جغاله زاده سنان باشا بتعمير الاضرحة والمساجد والمدارس ، وقام ببناء مرقد الشيخ عبد القادر الكيلاني ، وتكية المولوية التي تعرف اليوم بجامع الاصفية، وكان بناؤها عام ١٥٩٠،وبنى الى جانبها خانا ومقهى وسوقا، كما عمر هذا الوالي جامع الصاغة وجامع الخفافين ومدرسته. ومن الجوامع العثمانية الاخرى جامع الوزير ويقع على الضفة اليسرى من دجلة بالقرب من جسر الشهداء الحالي وقد سمي نسبة الى الوزير حسن باشا والي بغداد (١٥٩٧-١٦٠١) ومن الجوامعا لمهمة في بغداد جامع الخلفاء، ومنها ايضا جامع السليماني ويسمى جامع السراي أو جامع جديد حسن باشا. كما شيد الوالي محمد باشا الخاصكي جامع في بغداد يعرف باسمه، كما شيد مسجد الامام علي بن ابي طالب (عليه السلام) في النجف، وفي عهد الوالي عمر باشا ١٦٧٩تم تعمير جامع وقبة ضريح الامام الاعظم ابي حنيفة، كما امر بتعمير مرقد الامام ابي يوسف وجعل له قبة ورواقا، وبنى مدرسة بالقرب من جامع القمرية في جانب الكرخ، كما عمر خان ازاد على طريق بغداد-المحمودية.

وفي عام ١٦٨٨تم بناء خان بني سعد وهو على طريق بغداد-بعقوبة. ومن الجوامع المهمة في العصر العثماني جامع العادلية الكبير. وشيد سليمان باشا الكبير المدرسة السليمانية، كما بنى قناطر دلي عباس وامر ببناء قلعة كوت العمارة. وشيد مدحت باشا الكثير من العمارات المدنية والعلمية منها المكتب الرشدي العسكري ، والمكتب الرشدي الملكي ، ومكتب الحميدية ، وعدد من المدارس الابتدائية واسس مدرسة الصنائع على نهر دجلة في محلة الميدان.